تفسير سورة الأنفال

كاملة بأسلوب سهل جدا

رامي حنفي محمود

الألوكة
www.alukah.net

سلسلة كيف نفهم القرآن؟ (*)

(تفسير سورة الأنفال بأسلوب بسيط جداً)

١. الربع الأول من سورة الأنفال

الآية ١: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾: أي يسألك أصحابك أيها النبي عن الغنائم – يوم بَدْر – كيف تقسمها بينهم؟ ﴿قُلِ﴾ لهم: ﴿الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾: يعني إنَّ أمْرَها إلى الله ورسوله، فالرسولُ يَتولى قِسمتها بأمْر ربه، (وقد حَكَمَ اللهُ تعالى فيها بقولِهِ في هذه السورة: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ...﴾ وسيأتي تفسير الآية).

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بترْك العداوة والمخاصمة بسبب هذه الأموال، ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾: يعني أصلِحوا العلاقات التي تربط بعضكم ببعض – من المحبة والأخُوّة – وصَفُّوا قلوبكم مِن كل حِقدٍ أو غِلّ نشأ بينكم بسبب هذه الغنائم ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾.

الآية ٢، والآية ٣، والآية ٤: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ - أي أصحاب الإيمان الكامل – هم ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي خافت قلوبهم، خاصةً عند ذِكر وعيدِ الله تعالى ووعده (فإذا ذُكِرَ الوعيد بالعذاب: خافوا أن يُصيبهم العذاب بسبب ذنوبهم وتقصيرهم، وإذا ذُكِرَ الوعد بالجنة: خافوا أن يُحرَموا منها إذا لم تُقبَل توبتهم وأعمالهم)، فعندئذٍ يتوبون من المعاصي ويُكثِرونَ من الطاعات، ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ (بسبب تَدَبُّرِهم لمعاني الآيات، وتطبيقها عملياً في حياتهم).

(*) وهي سلسلة تفسير لآيات القرآن الكريم، وذلك بأسلوب بسيط جدًّا، وهي مُختصَرة من (كتاب: "التفسير المُيَسَّر" (بإشراف التركي)، وأيضًا من "تفسير السّعدي "، وكذلك من كتاب: " أيسر التفاسير" لأبو بكر الجزائري) (بتصرف)، عِلمًا بأنّ ما تحته خط هو نص الآية الكريمة، وأما الكلام الذي ليس تحته خط فهو تفسير الآية الكريمة.

– واعلم أن القرآن قد نزلَ مُتحدياً لقومٍ يَعشقون الحَذفَ في كلامهم، ولا يُحبون كثرة الكلام، فجاءهم القرآن بهذا الأسلوب، فكانت الجُملة الواحدة في القرآن تتضمن أكثر مِن مَعنى: (مَعنى واضح، ومعنى يُفهَم من سِيَاق الآية)، وإننا أحياناً نوضح بعض الكلمات التي لم يذكرها الله في كتابه (بَلاغةً)، حتى نفهم لغة القرآن.

﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي: وعلى الله وحده يعتمدون – هذا مع أخْذِهِم بالأسباب –، ولكنّ قلوبهم تتعلق بمُسَبب الأسباب سبحانه، الذي بيده كل شيء (فالجوارحُ تعمل والقلوبُ تتوكل)، وهم ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ أي يُداومون على أداءها – في أوقاتها – باطمئنانٍ وخشوع.

♦ واعلم أنّ مِن أصْدَق الحِكَم التي قرأتُها: (إذا لم تكن تعيشُ سعيداً، فاعلم أنك لا تصلي جيداً، فهناك فرقٌ بين مَن يُصلي لِيَرتاحَ بها، وبين مَن يُصلي لِيَرتاحَ منها).

﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ - من أنواع الأموال - ﴿يُنْفِقُونَ﴾: أي يُخرِجون صَدَقة أموالهم الواجبة والمستحبة (وكذلك يُنفقون مِمَّا رزقهم الله – مِن عِلمٍ أو صِحَّةٍ أو سُلطة – في خدمة المسلمين، فيُعَلِّمونَ الناس، ويَسعونَ في قضاء حوائجهم، وغير ذلك).

﴿أُولَئِكَ﴾ المُتصفون بهذه الصفات ﴿هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ ظاهرًا وباطنًا، ﴿لَهُمْ دَرَجَاتٌ﴾ أي منازل عالية ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وهو الجنة.

الآية ٥، والآية ٦: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ﴾: يعني كما أنّ ربك سبحانه قد جَعَلَ أمْرَ تقسيم الغنائم إليه، فكذلك أمَرَكَ بالخروج من "المدينةِ" ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي بالوحي الذي أتاكَ به جبريل بالحق، وذلك للقاء قافلة قريش المُحَمَّلة بالخير الكثير (جزاءً للمشركين على إخراجهم للمؤمنين مِن ديارهم، وعلى أخْذِهِم أموالهم بغير حق)، ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ يعني: وإنَّ بعض المؤمنين قد كَرِهوا الخروجَ معك، عندما علموا أنّ قريشاً قد خرجتْ لِقتالهم (دِفاعاً عن القافلة)، وهؤلاء المؤمنون ﴿يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ﴾ أي في شأن القتال ﴿بَعْدَمَا تَبَيَّنَ﴾ أنّ القافلة قد نَجَتْ وأنه لابد من القتال، فتراهم ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾ إليه بأعينهم، وذلك مِن شدة كراهيتهم لقتالٍ لم يَستعِدُّوا له.

الآية ٧، والآية ٨: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾: يعني واذكروا – أيها المجادلون – وَعْدَ الله لكم بالفوز بأحَد الأمرين: القافلة وما تحمله مِن أرزاق، أو قتال الأعداء والانتصار عليهم، ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾: يعني وأنتم تحبون الفوز بالقافلة مِن غير قتال، ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ﴾: أي ولكنّ الله يريدُ أن يُظهِرَ الحقَّ بنصْر أوليائه وهزيمة أعدائه.

♦ وقولُهُ تعالى: ﴿بِكَلِمَاتِهِ﴾: أي بأمْرِهِ لكم بقتال الكفار، وبأمْرِهِ للملائكة بالقتال معكم، ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾: أي ويريد سبحانه أن يَستأصل الكافرين بالهلاك، وذلك ﴿لِيُحِقَّ الْحَقَّ﴾: أي لِيَنصر الإسلامَ ويُعِزَّ أهله، ﴿وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ﴾: أي ويُذهِب الشركَ ويُذلّ أهله، ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾: يعني ولو كَرِهَ المشركونَ ذلك.

الآية ٩: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾: أي اذكروا نعمة الله عليكم يوم بدر، حين طلبتم مِن ربكم – بتضرُّعٍ – أن يَنصركم على عدوكم، ﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ قائلاً ﴿أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ أي مُتتالِين، يَتْبَعُ بعضهم بعضًا.

الآية ١٠: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾: أي وما جعل اللهُ هذا الإمداد بالملائكة ﴿إِلَّا بُشْرَى﴾ لكم بالنصر ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ ويَذهب منها القلق والاضطراب، وتوقنوا بنصر الله لكم ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يَغلبه أحد ﴿حَكِيمٌ﴾ يَنصرُ مَن يَستحق النصر.

الآية ١١: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ﴾: أي اذكروا نعمة اللهِ عليكم يوم بدر، حين ألقى عليكم النُعاس ﴿أَمَنَةً مِنْهُ﴾: أي أمانًا منه سبحانه، واطمئناناً لكم من الخوف الذي أصابكم لِكثرة عدوكم، (فإنّ العبد إذا أصابه النُعاس: هدأ وثبت، فلا يخافُ ولا يَهرب).

♦ ثم ذكَّرَهُم سبحانهُ بنعمةٍ أخرى يوم بدر، وهي أنه أنزل على مُعَسكَرِهِم مطراً غزيراً شربوا منه وتطهروا، وذلك بعد أن كانوا عِطاشاً، مُحدِثين (أي ناقضِينَ لِوضوءهم)، فقال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾، ﴿وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ﴾ يعني: ولِيُزيلَ عنكم وساوس الشيطان، لأنّ الشيطانَ وسوس لبعضهم قائلاً: (كيف تُنصَرون وأنتم مُحدِثين؟، وكيف تقاتلون وأنتم عِطاش؟)، ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾: يعني ولِيُطَمْئِنَ قلوبَكم بوجود الماء، لِكَوْنِكُم لا تخافونَ عطشاً أثناء القتال، ولِتزدادوا ثباتاً ويقيناً بأنّ اللهَ معكم (إذ أنزل المطر لِيُعِينَكم به على عدوكم)، ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾: أي ويُثبِّتَ بالمطر أقدامكم، لأنّ المطر قد جَعَل الأرض الرملية – التي نزلتم بها – قويَّة متماسكة، حتى لا تغوص فيها الأقدام.

الآية ١٢: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ – الذين أمَدَّ اللهُ بهم المسلمين في بدر – ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ بنَصْري وإعانتي، ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾: أي فقوُّوا عزائم الذين آمنوا، ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾

﴿فَاضْرِبُوا﴾ المشركينَ ﴿فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ - وهو المكان الذي تُذبَح منه البَهيمة - ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ أي: واضربوا أطراف أيْديهم وأرجُلِهم، حتى لا يستطيعوا ضرباً بالسيف، ولا فِراراً بالأرجل.

الآية ١٣، والآية ١٤: ﴿ذَلِكَ﴾ الذي حدث للكفار – مِن ضَرْب أعناقهم وأطرافهم – ﴿بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾: أي بسبب مخالفتهم لأمر الله ورسوله، ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعني: ومَن يُخالف الله ورسوله: يَنتقم اللهُ منه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، ﴿ذَلِكُمْ﴾ – أي العذاب الذي عجَّله اللهُ لكم يوم بدر – ﴿فَذُوقُوهُ﴾ في الحياة الدنيا، ﴿وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ﴾ جميعاً ﴿عَذَابَ النَّارِ﴾ يوم القيامة.

الآية ١٥: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا﴾ أي زاحفينَ إليكم لِيُقاتلوكم ﴿فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ﴾: أي فلا تُعطوهم ظهوركم فِراراً منهم، ولكن اثبُتوا لهم، فإنّ اللهَ معكم وناصركم عليهم.

الآية ١٦: ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ﴾: يعني والذي يَفِرّ منهم وقت المعركة لا يكونُ ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ﴾: أي مُصطنِعاً لحيلةٍ وخِداع، ليتمكن مِن محاصرة الكفار وقتالهم، ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ﴾: يعني أو كانَ يريدُ بفراره الانضمام إلى جماعةٍ من المؤمنين وهي تقاتل، فيقاتل معها لِيُقوِّيها أو يَقوَى بها، (فمَن لم يكن كذلك، وفرَّ من المعركةِ جُبناً من القتال وخوفاً من المشركين) ﴿فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ أي رجع من المعركة مُستحقاً لغضبٍ من الله ﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ﴾ في الآخرةِ ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

الآية ١٧: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾: أي فلم تقتلوا المشركين يوم بدر ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ لأنه هو الذي أمَرَكم بقتالهم وأعانكم على ذلك، ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾: يعني ولستَ أنتَ الذي أصبتَ في رَمْيتِكَ – أيها النبي – حين رميتَ حِفنة التراب على المشركين أثناء المعركة ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾: أي ولكنَّ اللهَ هو الذي أصاب، حيثُ أَوْصَلَ تلك الرَمْيَة إلى أغلب عيون المشركين، فعَوَّقتْهم عن القتال وتسَبَّبتْ في هزيمتهم، (ولو أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم تُرِكَ لِقوَّتِه، لَمَا وصلتْ الرَمْيَة إلى أعْيُن الصف الأول من المشركين).

♦ وقد فعل اللهُ ذلك بالمشركين لِيُذِلَّهم ويَكسر شَوكتهم ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾: يعني ولِيَختبر صِدْق المؤمنين بالقتال، ويُنعِمَ عليهم بنَصْرهم رغم قلة عددهم، ويُوصلهم بالجهاد إلى أعلى الدرجات، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لدعائكم عندما استغثتم به أثناء المعركة ﴿عَلِيمٌ﴾ بضَعْفِكم يومَها وحاجتكم إليه، فأعانكم ونَصَرَكم.

الآية ١٨: ﴿ذَلِكُمْ﴾ - أي هزيمة المشركين ونَصْر المؤمنين يومَ بدر - كانَ بقدرة الله تعالى، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ﴾ يعني إنه سبحانهُ سيُضعِفُ مَكْرَ الكافرين - في كل وقت - حتى ينقادوا للحق، أو يَهلكوا على شِركهم.

الآية ١٩، والآية ٢٠، والآية ٢١: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا﴾: يعني إنْ تطلبوا أيها المشركون أن يُوقِعَ اللهُ عذابه على أهل الباطل - كما طلبتم ذلك يوم بدر: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾: أي فقد أجابَ اللهُ طلبكم، حينَ أوقعَ بكم مِن عقابه ما كانَ عبرةً للمؤمنين، ﴿وَإِنْ تَنْتَهُوا﴾ عن الكُفر بالله ورسوله، وعن قِتال النبي وأصحابه، وتُسلِموا لله تعالى: ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ في دُنياكم وأُخراكم، ﴿وَإِنْ تَعُودُوا﴾ إلى قتال المؤمنين، وإلى طلب النَصر لِمَن على الحق: ﴿نَعُدْ﴾ في نَصْر المؤمنين عليكم، ﴿وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ﴾: أي ولن يَدفع عنكم أعوانكم وأنصاركم شيئًا من العقاب، كما لم يَدفعوهُ عنكم يوم بدر، رغم كثرة عددكم وسلاحكم، ورغم قلة عدد المؤمنين وسلاحهم.

♦ هذا ﴿وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بنصره وتأييده، فلن يتخلى عنهم ما داموا مستقيمينَ على طاعة الله ورسوله، ولهذا قال تعالى بعدها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ ﴿وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾: أي ولا تُعرضوا عن هذا الأمر - وهو طاعة اللّه ورسوله - ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ ما يُتلَى عليكم مِن الحُجَج والبراهين في القرآن.

♦ إذ كانَ نَصْرُكُم - أيها المؤمنون في بدر - ثمرةً لإيمانكم وطاعتكم، فإنْ أعرضتم وعصيتم: أصبحتم كغيركم من أهل الإعراض والعِصيان، (ولذلك كانت هزيمة المسلمين في "أُحُد" - بعد أنْ كانَ النَصْر لهم في أول المعركة - عقوبةً مِن اللهِ تعالى لهم بسبب معصيتهم لأمر الرسول صلى الله عليه وسلم).

﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ في مخالفة أوامر الله ورسوله ﴿كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ (وهم المشركون والمنافقون الذين إذا سمعوا كتابَ اللهِ يُتلَى عليهم قالوا: (سَمِعنا بآذاننا)، وهم في الحقيقة لا يتدبرون ما سَمِعوا، ولا يَتفكَّرون فيه لِيعتبروا، لِذا فهُم في سَماعهم كمن لم يَسمع، إذ العِبرةُ من السَماع: التفكُّر والانتفاع).

****

٢. الربع الثاني من سورة الأنفال

الآية ٢٢، والآية ٢٣: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾ يعني: إنَّ شر ما دَبَّ على الأرض ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ - مَنزِلةً - هم ﴿الصُّمُّ﴾ الذين امتنعتْ آذانُهم عن سَماع الحق، ﴿الْبُكْمُ﴾ الذين خَرُسَتْ ألسنتهم عن النُطق به، وهؤلاء هم الذين ﴿الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ عن الله حُجَجه وبراهينه، ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ﴾ مواعظ القرآن سَماعَ تدبُّرٍ وانتفاع، ولكنه سبحانه عَلِمَ أنه لا خيرَ فيهم، لأنهم توَغَّلوا في الظلم والفساد والكِبر والعِناد، فحُرِموا بذلك هِداية الله تعالى، ﴿وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ﴾ سبحانهُ - على سبيل الفرْض - ﴿لَتَوَلَّوْا﴾: أي لأعرضوا عن الإيمانِ بالقرآن - كِبراً وعِنادًا - مِن بعد فَهْمِهم لآياته، ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ دائماً عن الحق، فلا يَلتفتون إلاَّ لِما يُناسِبُ أهوائهم.

الآية ٢٤: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ - بالطاعة والانقياد - ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾: يعني إذا دعاكم للحق الذي فيه إصلاح حياتكم في الدنيا والآخرة (كالجهاد وغيره)، ثم حَذَّرَ سبحانه مِن عدم الاستجابة للّهِ وللرسول فقال: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ (والمقصود أنَّ اللهَ تعالى يَملِكُ قلبَ العبد، فإيّاكم أن ترُدُّوا أمْرَ اللّهِ أوَّلَ ما يأتيكم، حتى لا يُضِلَّ قلوبكم، فيجعلكم تكرهون الطاعة وتحبون المعصية، وترونَ الحقَّ باطلاً والباطلَ حقاً).

♦ فلهذا يجب أن يُكثِرَ العبدُ مِن قوْله: (يا مُقَلِّبَ القلوب ثبِّت قلبي على دينك)، و (يا مُصَرِّفَ القلوب صَرِّف قلبي إلى طاعتك)، لأنّ القلوب بين يَدَي الله تعالى، يُقَلِّبُها ويُصَرِّفها حيث يشاء، ﴿وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ يومَ القيامة، لِيُجازِي كُلاًّ بما يَستحق (فالذي يَعلمُ أنه سيَرجِعُ إلى ربه، لابد أن يُسرعَ في تلبيةِ أمْرِه، حتى لا يُبتَلَى بفتنةٍ تُهلِكُهُ في دنياهُ وآخِرَته).

الآية ٢٥: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً﴾: أي واحذروا - أيها المؤمنون - عذاباً ومِحنةً ﴿لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾: أي لا يُخَصُّ بها أهل المعاصي فقط، بل تُصيبُ الصالحين معهم إذا قدروا على إنكار الظلم ولم يُنكِروه، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، فعقابُهُ تعالى لا يُطاق ولا يُحتمَل.

الآية ٢٦: ﴿وَاذْكُرُوا﴾ أيها المؤمنون نِعَمَ الله عليكم ﴿إِذْ أَنْتُمْ﴾ أي حينَ كنتم ﴿قَلِيلٌ﴾ أي قليلوا العدد - في مكة - ﴿مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ﴾: أي تخافون أن يَخطفكم الكفار بسرعةٍ وسهولة (يعني بدون أن تقاوموهم) وذلك لِضَعفكم وقِلَّتِكم، ﴿فَآوَاكُمْ﴾: أي فجعل لكم مَأوىً

تأوونَ إليه وهو" المدينة"، فكَثَّرَكم فيها وقوَّاكم ﴿وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ﴾ يوم بدر، ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ - التي مِن ضِمنها الغنائم - ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ربكم على ما أنعمَ به عليكم.

الآية ٢٧، والآية ٢٨: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ – بترْك ما أوجَبَهُ اللهُ عليكم، وبفِعْل ما نهاكم عنه –، ﴿وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ﴾: أي ولا تخونوا أماناتكم التي ائتمنكم الناسُ عليها ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ عِظَم جريمة الخيانة، ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ أي اختبارٌ مِن الله لعباده، لِيَعلمَ سبحانه: أيَشكرونه عليها، أم يَنشغلونَ بها عنه؟ ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾: أي واعلموا أنّ الله ﴿عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ - وهو نعيم الجنة، الذي أعدَّهُ اللهُ لِمَن اتقاه وأطاعه، ونَجَحَ في اختباره.

الآية ٢٩: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ﴾ – بفِعل أوامره واجتناب نواهيه –: ﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ أي عِلماً ونوراً تُفرِّقونَ بهِ بين الحق والباطل، ﴿وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾: أي يَمحُ عنكم صغائر ذنوبكم، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ كبائرَ ذنوبكم، فيَسترها عليكم، ولا يؤاخذكم بها ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾.

الآية ٣٠: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾: يعني واذكر أيها الرسول نعمة ربك، حين كانَ المشركون بمكَّة يَكيدونَ لك ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾: أي لِيَحبسوك ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ مِن بَلدك، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ بهم، حيثُ أخرجك مِن بين أيديهم سالماً، ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (وفي هذا إثباتُ صفةِ المَكْر لله تعالى على الوجه الذي يَليقُ بجلاله وكماله، لأنه مَكْرٌ بحق، وفي مقابلة مَكْر الماكرين، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه: (وامكُر لي ولا تمْكُر عليّ)، ومِمَّا يَجب أن يُعلَم أنَّ أفعالَ الله تعالى لا تُشبه أفعال العباد، لأنّ ذاتَهُ سبحانه لا تُشبه ذَواتِهم).

الآية ٣١: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا﴾: يعني وإذا تُتلَى على هؤلاء المشركين آيات القرآن الكريم: ﴿قَالُوا﴾ - جهلاً منهم وعِنادًا للحق - : ﴿قَدْ سَمِعْنَا﴾ ما تَقرأ علينا، ﴿لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾ القرآن، ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾: يعني ما هذا القرآن الذي تتلوهُ علينا إلا أكاذيبُ الأوَّلين، (وقد كذبوا في ذلك، فأين ما يَقُصُّهُ القرآن وما يُوسوسُ به الشيطان؟!).

الآية ٣٢، والآية ٣٣: ﴿وَإِذْ قَالُوا﴾ أي اذكر أيها الرسول حين قال المشركون مِن قومك: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا﴾ القرآن ﴿هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وهذا دليلٌ على غباء أهل الباطل، إذ كانَ الأوْلَى بهم أن يقولوا: (اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فاهدِنا إليه ووَفِّقنا لاتِّباعه)!

♦ ثم أخبر اللهُ رسوله بأنه قادرٌ على إنزال العذاب بهم، ولكنه أخبره أيضاً بأنه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ - أيها الرسول – لِمَكانَتِكَ عند ربك، ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (وفي هذا دليلٌ على أن الاستغفار سببٌ للنجاة من عذاب الله تعالى)، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (مَن أحَبَّ أنْ تَسُرَّهُ صَحِيفتَهُ: فليُكثِر فيها من الاستغفار) (انظر السلسلة الصحيحة:٢٢٩٩)، وقال أيضاً: (طُوبَى لمن وُجِدَ في صَحِيفتِهِ استغفارٌ كثيرٌ) (انظر صحيح الترغيب والترهيب: جـ ٢ رقم1618)، وطوبَى هي: (شجرة في الجنة، مَسِيرة مائة عام، تخرجُ ثيابُ أهل الجنة من أكمامها) كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم في حديثٍ آخر (انظر صحيح الجامع حديث رقم: ٣٩١٨).

الآية ٣٤: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾: يعني وكيف لا يَستحقُّون عذابَ الله ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾: أي وهم يَمنعون المؤمنين عن الطواف بالكعبة والصلاة في المسجد الحرام؟، ﴿وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ﴾: يعني وما كان المشركون أولياءَ لله تعالى كما زعموا، ﴿إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ﴾: يعني إنما أولياءُ الله حقاً هم الذين يتقونه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ أي أكثر الكفار ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، فلهذا زعموا لأنفسهم أمرًا غيرهم أوْلَى به.

الآية ٣٥: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً﴾: يعني وما كان صلاة المشركين عند المسجد الحرام إلا صَفيرًا بالفم ﴿وَتَصْدِيَةً﴾: أي تصفيقًا باليد ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ أي عذاب القتل والأسر يوم بدر، جزاءً ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وبما كنتم تستهزئون بشعائر الله تعالى.

الآية ٣٦، والآية ٣٧: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ فيُعطونها لأمثالهم من المشركين وأهل الضَلال ﴿لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾: أي لِيَمنعوا الناس عن الدخول في الإسلام، ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ﴾ هذه الأموال ﴿عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ لأنها تذهب هباءً، ولا يفوزون بما يريدون، ﴿ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾: أي ثم يَهزمهم المؤمنون في آخر الأمر، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وماتوا على كُفرهم ﴿إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾.

♦ وقد أُدخِلَ هؤلاء الكفار جهنم ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ﴾ وهم أهل الشرك والمعاصي ﴿مِنَ الطَّيِّبِ﴾ وهم أهل التوحيد والصلاح، فيَجعل سبحانه الطيبين يتميزون عن الخبيثين بدخولهم دار النعيم ﴿وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ﴾ متراكمًا متراكبًا، ﴿فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا﴾ كَوْماً واحداً ﴿فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ﴾ ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ في الدنيا والآخرة.

الآية ٣٨: ﴿قُلْ﴾ - أيها الرسول - ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِن قومك: ﴿إِنْ يَنْتَهُوا﴾ عن الكُفر وعن قتالك وقتال المؤمنين، ويرجعوا إلى التوحيد الذي فطرهم اللهُ عليه: ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي يَغفر اللهُ لهم ما سبق من الشرك والذنوب بسبب إسلامهم، ﴿وَإِنْ يَعُودُوا﴾ للجحود بوحدانية الله ورسالتك، وإلى قتالك وقتال المؤمنين: ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾: أي فقد سبقتْ طريقة اللهِ في الأولين، وهي إهلاك الظالمين إذا استمروا على تكذيبهم وعِنادهم، كما حدث مع عادٍ وثمود، وكما حدث مع كفار مكة يوم بدر (وفي هذا تهديدٌ عظيمٌ لهم).

الآية ٣٩، والآية ٤٠: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ﴾: أي وقاتِلوا - أيها المؤمنون - المشركينَ المحاربين ﴿حَتَّى لَا تَكُونَ﴾ هناك ﴿فِتْنَةٌ﴾ أي صَدٌّ للمسلمين عن دينهم (بالتعذيب والاضطهاد)، وحتى لا يكونَ هناك شِركٌ باللهِ تعالى، ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾: أي ويَبقى الدينُ للهِ وحده، لا يُعْبَدُ معه غيرُه، فيرتفع البلاء عن أهل الأرض جميعاً، ﴿فَإِنِ انْتَهَوْا﴾ عن تعذيب المؤمنين وعن الشرك بالله تعالى، وصاروا إلى الدين الحق معكم: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لا يَخفَى عليه ما يعملون، ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾: يعني وإن أعرضوا عن الإسلام، وأصَرُّوا على قتالكم: ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ﴾: أي فأيقِنوا أنَّ الله ناصركم عليهم، إذ هو سبحانه ﴿نِعْمَ الْمَوْلَى﴾ أي نِعْمَ المُعين والحافظ ﴿وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ لكم على أعدائكم.

****

٣. الربع الثالث من سورة الأنفال

الآية ٤١: ﴿وَاعْلَمُوا﴾ أيها المسلمون ﴿أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعني إنكم إذا فزتم بشيءٍ من الغنائم وأنتم تجاهدون في سبيل الله: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾: يعني فإنّ خُمس هذه الغنيمة يُقسَّم كالآتي: (الجزء الأول لله وللرسول، فيُجعَل في مصالح المسلمين العامة ويُنفَق منه أيضاً على الكعبة وباقي المساجد، والجزء الثاني لأقرباء الرسول صلى الله عليه وسلم، وهم بني هاشم وبني عبد المُطَّلِب (فقد جُعِل لهم ذلك الجزء من الغنيمة مكان الصدقة لأن الصدقة لا تَحِلُّ لهم)، والجزء الثالث لليتامى، والرابع للمساكين، والخامس للمسافر الذي فَقَدَ ماله - أو نَفَذ ماله - واحتاجَ للنفقة).

♦ وأما الأربعة أخماس الباقين من الغنيمة: فإنها توزَّع على المقاتلين الذين حضروا المعركة، بحيثُ يُعطَى الفارس (وهو الذي كان يقاتل راكباً على فرسه) ضعف ما يأخذ الراجل (وهو الذي كان يقاتل واقفاً على رجليه)، وذلك لِمَا للفارس مِن تأثير في الحرب، ولأنّ فرسه يحتاج إلى نفقة علف.

♦ فارْضوا بهذه القسمة التي شَرَعها الله لكم ﴿إِنْ كُنْتُمْ آَمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾: يعني إن كنتم مُقرِّين بتوحيد الله، مُطيعينَ له، مؤمنين بما أنزَلَ على عبده محمد صلى الله عليه وسلم من الآيات والمَدَد والنصر ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ أي يوم بدر (الذي فَرَق اللهُ فيه بين الحق والباطل) ﴿يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ أي جَمْعُ المؤمنين وجَمْعُ المشركين، ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (فكما قدَرَ سبحانه على نَصْركم رغمَ قِلَّتِكُم، فكذلك هو قادرٌ على كل شيءٍ يريده).

الآية ٤٢: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا﴾ (هذا تذكيرٌ للمؤمنين بساحة المعركة، التي ظهر فيها لُطف الله تعالى بهم، حيثُ كان المشركون – في بادئ الأمر – يتميزون عنهم بحُسن الموقع، ثم قلَبَ اللهُ تعالى الكِفَّة لتكون في صالح المؤمنين، فقال لهم: اذكروا نعمة الله عليكم حينما كنتم على حافة الوادي الأقرب إلى "المدينة" (وقد كانت أرضاً رملية تغوص فيها الأقدام)، ﴿وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى﴾: يعني وكان عدوكم نازلاً بالحافة الأبعد عن "المدينة" (وكانت أرضاً صلبة)، فلمَّا سبقهم جيش المشركين إليها، اغتمَّ المسلمون، فلمَّا أرسل اللهُ المطر: أصبحت الأرض الرملية – التي نزل بها المسلمون – قويَّة متماسكة (فلم تَعُقْ المسلمين عن المَسير)، وأصبحت الأرض الصلبة – التي نزلتْ بها قريش – زَلقة (فعَطَّلتْهم عن المَسير)، فلم يَصِلوا إلى بئر بدر إلا بعد أنْ وَصَلَ المسلمون إليه، فعندئذٍ اختار المسلمون أحسن موقع، واتخذوا حوضاً يكفيهم من الماء، فكان المسلمون يشربون، ولا يَجد المشركون ماءً.

﴿وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ أي: واذكروا حينما كانت قافلة قريش التجارية – التي خرجتم مِن أجلها – في مكانٍ أسفلَ منكم (ناحية شاطئ البحر الأحمر) بقيادة أبي سفيان، وبالتالي فقد كنتم مُحاصَرين بجماعتين من المشركين (جيش أبي جهل مِن ناحية، وأبي سفيان ومَن معه مِن ناحيةٍ أخرى)، فلو فَطِنَ العدو لهذا الوضع، لَطوَّقَ جيش المسلمين من الناحيتين، ولكنَّ اللهَ صرفهم عن التَفَطُّن لذلك، وكذلك صَرَفَ المسلمين عن محاولة الهجوم على القافلة، حتى لا يقعوا بين جماعتين من العدو، فللهِ الحمدُ والمِنّة.

﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ﴾: يعني ولو حاولتم أيها المسلمون أن تضعوا موعدًا لهذا اللقاء بهذه الصورة لَتأخرتم – بل ولَتخلفتم – عن الميعاد، لأسبابٍ تقتضي ذلك (منها أنكم قِلَّة وهم كَثرة)،

﴿وَلَكِنْ﴾ اللهُ جَمَعَكم في وادٍ واحد على غير ميعادٍ ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ - أي لابد مِن وقوعه – وهو نَصْر أوليائه وخِذْلان أعدائه ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ﴾ من المشركين ﴿عَنْ بَيِّنَةٍ﴾: أي عن حُجَّةٍ ظهرتْ له وقطعتْ عُذره أمامَ اللهِ تعالى، إذ اتضَّحَ له – بعدما رأى الآيات يوم بدر – أنّ المشركين على باطلٍ وضلال، ثم رَضِيَ بذلك الباطل واستمر عليه، ﴿وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾: يعني وليحيا مَن نجا مِن المشركين عن حُجَّةٍ ظهرتْ له، فعَلِمَ ساعتَهَا أن الإسلامَ حق، وأن الرسولَ حق، وذلك بما أرَى اللّهُ الطائفتين من الأدلة والبراهين، ما يَتعظُ به المشركون، ويَزدادُ به الذين آمنوا إيماناً، ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ لأقوال الفريقين، ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالهم.

الآية ٤٣: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾: أي اذكر – أيها الرسول – حينما أراكَ اللهُ قِلَّة عدد عدوك في منامك، فأخبرتَ المؤمنين بذلك، فقَوِيَتْ قلوبُهم، واجترأتْ على حَرْبِهم، ﴿وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ﴾ أي لَتردد أصحابك في مُلاقاتهم، ولَخافوا مِن لقائهم، ﴿وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾: أي ولاَختلفتم في أمر القتال، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ﴾ من الفشل، ونجَّاكم مِن عاقبةِ ذلك، ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾: يعني إنه سبحانه عليمٌ بخفايا القلوب وطبائع النفوس.

الآية ٤٤: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا﴾: يعني واذكروا أيضًا حينما ظهر أعداؤكم في أرض المعركة، فرأيتموهم قليلين فاجترأتم عليهم، ﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ﴾: يعني وقلَّلكم ربكم – أيها المؤمنون – في أعين المشركين، ليتركوا الاستعداد لِحَربكم (هذا قبل الالتحام، أما بعد الالتحام فقد رأى المشركونَ المؤمنين مِثلَيْهِم – أي يَزيدون عليهم في العدد زيادة كبيرة تبلغ الضِعف –، وذلك حتى تتم هزيمتهم).

♦ وقد كان ذلك التدبير الإلهي ﴿لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾: أي ليتحقق وَعْدُ اللهِ لكم بالنصر، فإنه سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾: يعني وإلى اللهِ وحده تصير الأمور كلها، فما شاءَ منها كان، وما لم يَشأهُ لم يكن، فليس لأحدٍ فيها تأثير إلا بإذنهِ سبحانه.

الآية ٤٥: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً﴾ يعني إذا لقيتم جماعةً مِن أهل الكفر قد استعدوا لقتالكم ﴿فَاثْبُتُوا﴾ ولا تفِرُّوا منهم، وكونوا في صمودكم كالجبال الشامخة ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ مُكَبِّرينَ داعينَ مُتضَرِّعينَ لإنزال النصر عليكم ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾: أي لكي تفوزوا بالنصر في الدنيا وبالجنة في الآخرة.

الآية ٤٦: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ – والتزموا هذه الطاعة في جميع أحوالكم –، ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾: أي ولا تختلفوا – وأنتم في مواجهة العدو – فتتفرق كلمتكم وتختلف قلوبكم، وتذهب قوتكم، ﴿وَاصْبِرُوا﴾ عند لقاء العدو ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالنصر والعَوْن والتأييد.

الآية ٤٧: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا﴾ أي: ولا تكونوا مِثل المشركين الذين خرجوا ﴿مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ أي مِن بلدهم، وقد خرجوا ﴿بَطَرًا﴾: أي كِبرًا، مِن أجل العُلُوّ في الأرض، ﴿وَرِئَاءَ النَّاسِ﴾: يعني ولِيَراهم الناس ويَفتَخِروا بقوّتهم.

♦ ثم ذكر تعالى مقصودهم الأعظم من هذا الخروج فقال: ﴿وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعني إنهم خرجوا لإظهار قوتهم أمام الناس لِيُخَوّفوهم من الدخول في دين الله، ولِيُرغِموهم على عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم، ويُعذبوا مَن أجابَ دَعْوَته، ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ لا يَغيبُ عنه شيءٌ مِن أفعالهم وأقوالهم، وسيُعاقبهم على ذلك أشد العقوبة.

الآية ٤٨: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾: يعني واذكروا حين حَسَّن الشيطانُ للمشركين أمْرَ إنقاذ القافلة وقتال المسلمين، ﴿وَقَالَ﴾ لهم: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ﴾: يعني لن يَغلبكم اليوم أَحَد، فإني ناصركم عليهم، (وكان الشيطان في هذه الساعة في صورة رجل من أشراف القوم)، ﴿فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ﴾: يعني فلما تقابل الفريقان – المشركون ومعهم الشيطان، والمسلمون ومعهم الملائكة -: ﴿نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾: أي رجع الشيطان إلى الوراء هارباً من المعركة، ﴿وَقَالَ﴾ للمشركين: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ من الملائكة الذين جاؤوا مَددًا للمسلمين ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾: يعني أخافُ أن يُعاجلني بالعقوبة في الدنيا ﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾، فكانَ خِذلانُ الشيطان للمشركين: تقديراً من الله تعالى لِيُتِمّ النصرَ للمسلمين.

الآية ٤٩: ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ - وهم ضِعاف الإيمان – عندما رأوا خروجَ الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى بدر، فقالوا: ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ﴾ المسلمين ﴿دِينُهُمْ﴾ فعَرَّضهم للمَهالك، وجَرَّأهم على الخروج لقتال قريش وهي تفوقهم عدداً وسلاحاً، ولم يُدرك هؤلاء المنافقون أنه ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ ويَثِقْ بنصْره، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ﴾ لن يَخذله، إنه سبحانه ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يَغلبه أحد، ولا يمنعه أحد عن فِعل ما يريد ﴿حَكِيمٌ﴾ يَضع النصر لِمَن يَستحقه.

الآية ٥٠، والآية ٥١: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ﴾: يعني ولو أنك – أيها الرسول – أبْصَرتَ هؤلاء الكفار يوم بدر – وقتَ انتزاع الملائكةِ لأرواحهم – لَرأيتَ أمرًا فظيعاً، إذ ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾ أي يَضربونهم مِن أمامهم ومِن خلفِهم، ﴿وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾: أي ويقولون لهم: ذوقوا العذاب الشديد المُحرِق.

♦ وقد اختلف المفسرون في المُراد مِن قوْل الملائكة لهم – وهم في السَكَرات –: (وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ) فمنهم مَن قال: (كان مع الملائكة يوم بدر مقامع من حديد، كلما ضربوا المشركين بها، التهبتْ النار في جراحاتهم فتحرق أجسادهم)، ومنهم مَن قال بأنّ المُراد هو إخبارُهُم بأنهم سيذوقون عذاب الحريق عندما يدخلون جهنم في الآخرة، وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾، فهو بِشارةٌ لهم من الملائكة بعذابٍ أدهَى وأمَرّ مما هم فيهِ لِيَزدادوا حسرةً، (واعلم أن هذا السِياق، وإن كان قد حدث في غزوة" بدر"، إلاَّ إنه عامٌّ في حق كلِّ كافر وقت السَكَرات).

♦ ثم تقول الملائكة لهم: ﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك التعذيب هو ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾: أي بسبب كُفركم وأعمالكم السيئة في حياتكم الدنيا، وليس بظلمٍ مِن اللهِ لكم، لأنّ اللهَ تعالى هو الحَكَمُ العدل، ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ فلا يَظلم سبحانه أحدًا مِن خَلْقه مثقال ذرة، قال تعالى في الحديث القدسي – كما في صحيح مسلم –: "يا عبادي إني حرّمتُ الظلمَ على نفسي، وجعلتُهُ بينكم مُحَرَّماً فلا تَظَالَموا".

الآية ٥٢: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ﴾: يعني: إنّ شأنَ كفار قريش في تكذيبهم وما نزل بهم من العذاب، هي سُنَّة الله في عقاب الطغاة من الأمم السابقة، كما حدث لآل فرعون ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فقد ﴿كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ الواضحة ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ﴾: أي فعاجَلهم اللهُ بالعقوبة بسبب تكذيبهم وعِنادهم ﴿إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾.

الآية ٥٣، والآية ٥٤: ﴿ذَلِكَ﴾ العذاب الذي أصابَ الأمم الكافرة الظالمة ﴿بِأَنَّ﴾ أي بسبب أنّ ﴿اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً﴾ أي لم يَكُنْ مِن سُنَّتِهِ تعالى في خَلقه أن يكونَ مُغَيِّراً نعمةً ﴿أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ﴾ ولا أن يَسلبها منهم ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا﴾ هم ﴿مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ ويكونوا هم البادئين بالتكذيب والظلم، أو الفسوق والفجور، ﴿وَأَنَّ﴾ أي: وذلك العذاب كانَ أيضاً بسبب أنّ ﴿اللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوال عباده ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالهم، فلذلك كان الجزاءُ عادلاً لا ظلمَ فيه.

♦ ثم يُخبرُ تعالى بأنّ شأنَ الظالمين في تغيير نعمة الله عليهم واستحقاقهم للعذاب، هو ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ فقد ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ – بعدما تيَقنوا أنها من عند الله – وتكبَّروا عن الانقياد لها ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ﴾ ﴿وَكُلٌّ﴾ مِن المُهلَكين المُعذَّبين ﴿كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ لعباد الله تعالى، وظالمينَ لأنفسهم بتعريضها لِغضب الله وعذابه.

الآية ٥٥، والآية ٥٦: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ﴾: يعني إنَّ شر ما دَبَّ على الأرض ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ - مَنزِلةً – هم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والسبب في ذلك: ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: أي فهم لا يصَدِّقون رُسُلَ الله تعالى، ولا يُقِرُّون بوحدانيته، بسبب عِنادهم واتِّباعهم لأهوائهم مِن بعد ما تبيَّن لهم الحق، فبذلك صاروا شرَّ الدوابّ.

♦ ومِن هؤلاء الكفار: اليهود ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ﴾: أي الذين أخذتَ منهم عهداً بألاَّ يُحاربوك وألاَّ يُعينوا عليك أعدائك، ﴿ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ أي لا يَخافونَ عاقبة نقض المعاهدات والتلاعُب بها.

الآية ٥٧: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ﴾: يعني فإن واجهتَ – أيها الرسول – هؤلاء الناقضين للعهود في المعركة، وتمكنتَ منهم: ﴿فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ﴾: أي فأنزِلْ بهم مِن العذاب ما يُدْخِلُ الرعب في قلوب الآخرين ويُشتت جُموعهم، ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾: أي لعلهم يتعظون، فلا يُفكِّروا في حَربك وقتالك بعد ذلك.

الآية ٥٨: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ﴾: يعني وإن خِفتَ – أيها الرسول – ﴿مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً﴾ ظهرتْ علاماتها واضحةً أمامك: ﴿فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾: أي فاطرح تلك المعاهدة، مُلغِياً لها، مُعلِناً ذلك لهم، لِيَكون الطرفان – أنتم وهم – مُستوِيَيْن في العِلم بإلغاء المعاهدة، وذلك حتى لا يتهموك بالغدر والخيانة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾.

****

٤. الربع الأخير من سورة الأنفال

الآية ٥٩، والآية ٦٠: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ - وهم الذين نَجَوا من القتل في غزوة بدر – أنهم ﴿سَبَقُوا﴾: أي نجَوْا مِن عذاب الله، ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ أي لا يُعجِزونَ اللهَ بحال، وإنهم لن يُفْلِتوا مِن عذابِهِ أبداً.

♦ وبعد انتهاء معركة بدر وهزيمة المشركين فيها، عادَ أبو سُفيان ومَن معه إلى مكة وكلهم غيظٌ على المؤمنين، فأخذوا يستعدون للانتقام، ولذلك أمَرَ اللهُ رسوله والمؤمنين بإعداد القوة وبَذل ما في الوسع والطاقة، فقال لهم: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ في العدد والسلاح والتدريب، وغير ذلك مما فيه زيادة للقوة البدنية والعِلمية للمجاهدين، ﴿وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾ - هذا أمرٌ مِن اللهِ لهم بأن يَربطوا خيولهم ويَحبسوها أمام بيوتهم، لتكون مُعَدّة للجهاد عليها (ومِن ذلك أيضاً: الاستعداد بكل ما يُركَب أثناء القتال من المُعِدَّات الحديثة (البرية والهوائية))، ﴿تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾: أي واعلموا أن هذا الاستعداد تُدْخِلون به الخوف في قلوب أعداء اللهِ وأعدائكم، حتى لا يُفكِّروا في غزو المسلمين وقتالهم، ﴿وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ﴾: أي ولِتخيفوا أيضاً آخرين لا تظهر لكم عداوتهم الآن، ولكنْ ﴿اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ ويعلم ما يُخفونه لكم في صدورهم.

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي لتقوية المسلمين على جهاد الكفار: ﴿يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾: أي يُخلِفه اللهُ عليكم في الدنيا، ويَدَّخِر لكم ثوابه إلى يوم القيامة، ﴿وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾: يعني وأنتم لا تُنْقَصون مِن أجر ذلك شيئًا.

الآية ٦١، والآية ٦٢، والآية ٦٣: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ﴾: يعني وإنْ مالَ أعدائكم إلى ترْك الحرب ورَغِبوا في مُسالَمَتِكم والصُلح معكم: ﴿فَاجْنَحْ لَهَا﴾: أي فمِلْ – أيها الرسول - إلى تلك المُسالَمة، طالما أنهم رَغِبوا فيها بصِدق، لأنك رسولُ رحمة، ولستَ رسولَ عذاب، ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ أي فَوِّض أمْرَك إليه وثِق به وحده، لِيَكفيك شرَّهم ويَنصرك عليهم ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾ لأقوالهم ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنيَّاتهم.

﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ﴾ بإظهار المَيْل إلى السلم – وهم في نيَّتهم الغدر بك – فامضِ في صُلحِك ولا تَخَف منهم ﴿فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾: يعني فإنّ اللهَ سيَكفيك خِداعهم ومَكرهم؛ إنه ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ أي أنزَلَ عليك نصْره، وقوَّاك بالمؤمنين من المهاجرين والأنصار ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾: أي

جَمَعَ بين قلوب الأنصار بعدما كانت متنافرة يُعادي بعضهم بعضاً، وتقوم بينهم الحروب لأتفه الأسباب، ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾: يعني لو أنفقتَ – أيها الرسول - مالَ الدنيا لِتجمع قلوبهم، ما استطعتَ إلى ذلك سبيلاً، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ بأنْ جَمَعهم على الإيمان فأصبحوا إخوةً مُتحابين، ﴿إِنَّهُ﴾ سبحانه ﴿عَزِيزٌ﴾ أي غالبٌ على أمره، إذا أراد شيئاً، قال له: (كن فيكون)، ﴿حَكِيمٌ﴾ في فِعله وتدبير أمور خلقه.

الآية ٦٤: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾: يعني إنّ اللهَ كافيك – وكافي الذين معك من المؤمنين – شرَّ أعدائكم.

الآية ٦٥، والآية ٦٦، والآية ٦٧: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ﴾ أي حُثَّ ﴿الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾، وأخبِرْهم بأنه: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ﴾ عند لقاء العدو (لا يَضعُفون ولا يَجبُنون، بل يَثبُتون ويُقاتلون)، فإنهم ﴿يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ منهم، ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ﴾ مجاهدة صابرة: ﴿يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ذلك ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾: أي لأن الكافرين قومٌ لا عِلْمَ لهم – ولا فَهْمَ عندهم – لِمَا أعدَّهُ اللهُ في الجنةِ للمجاهدين في سبيله، فهم يقاتلون فقط من أجل العُلُوّ في الأرض والفساد فيها، فلذلك هم لا يَصبرون على القتال، لأنهم إذا خافوا على حياتهم: تركوا القتال طلباً للحياة، أما أنتم فتفهمون المقصود من القتال، وهو إعلاء كلمة اللّهِ تعالى وإظهار دينه، وحصول الفوز الأكبر عند اللّه، فلذلك يجب أن تصبروا.

♦ ولَمَّا شَقَّ على المؤمنين ثبات العشرة أمام المائة، والعشرين أمام المائتين، والمائة أمام الألف، خفّف اللهُ عنهم ذلك الحُكم بقوله: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ أي: وذلك التخفيف بسبب ما يَعلمه سبحانه فيكم مِن الضَعف، ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ من الكافرين، ﴿وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ﴾ منهم ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بمعونته، إذ لا نَصْرَ إلاَّ بعَوْنٍ مِن اللهِ تعالى، ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بتأييده ونصره.

♦ واعلم أنّ هذه الآية تحمل وعداً مِن اللهِ تعالى للمؤمنين بأنهم إذا بلغوا هذا العدد المُحَدَّد في الآية، فإنهم سيَغلبون ذلك العدد المُحَدَّد من الكفار (وهو أنّ الواحد من المؤمنين يَغلب اثنين من الكفار)، بشرط أن يَصبروا ويَثبُتوا أمام الأعداء، وفي هذا تقويةٌ لقلوب المؤمنين، وبشارةٌ لهم بالنصر، إذا حققوا الشروط الإيمانية والمادية.

♦ ثم عاتَبَ اللهُ نبيَّه والمسلمين عندما أخذوا الفِداءمن أسْرَى بدر مقابل إطلاق سَراحهم، فقال لهم: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى﴾ مِن أعدائه الكفار ﴿حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾: أي حتى يَقتل جميع الأسْرَى، ولا يُبقِي مُشركاً في ساحة المعركة، لِيُدخل بذلك الرعب في قلوب المشركين في أنحاء الأرض، لِيَكُفوا عن شَرِّهم وتَضعُف قوَّتهم.

♦ فما دامَ للمشركين شَرٌّ وقوَّة، فالأوْلَى ألاَّ يُؤسَروا، فإذا بَطُلَ شرُّهم وضَعُفتْ قوَّتهم: جازَ للمسلمين الإبقاء على الأسرى أحياءً، لِيَمُنُّوا عليهم بلا مقابل أو لِيُفادوهم بالمال، ﴿تُرِيدُونَ﴾ يا معشر المسلمين – بأخْذكم الفداء من أسرى بدر - ﴿عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ أي المال (لأنه عارِض ويزول فلا يَبقى)، ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾: يعني واللهُ يريد لكم النعيم الباقي في الآخرة إذا أظهرتم دينه، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ يَنصر مَن توكل عليه، ﴿حَكِيمٌ﴾ في شرعه وتدبيره، فاطلبوا أيها المؤمنون رضاهُ بتَرْكَ ما تريده أنفسكم لِمَا يريده سبحانه.

♦ واعلم أنّ هذا العتاب لم يَشمل عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ رضي الله عنهما، لأنهما كانا يريدان قتل الأسرَى وعدم أخْذ الفداء منهم.

الآية ٦٨، والآية ٦٩: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾: يعني لولا ما كَتبه اللهُ وقدَّره بإباحة الغنائم وفِداء الأسرى لهذه الأُمَّة: ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾: أي لَأصابكم عذابٌ عظيم بسبب أخْذِكم الفداء قبل أن يترل بشأنِهِ تشريع.

♦ ثم أذِنَ اللهُ تعالى لأهل بدر أن يأكلوا من الغنائم وفداء الأسرى، فقال لهم: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ بالمحافظة على أحكام دينه وتشريعاته ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ حيثُ غفر لكم ما وقع منكم، ﴿رَحِيمٌ﴾ بكم، حيثُ أباحَ لكم الغنائم وجعلها حلالاً طيباً، وفي الحديث الصحيح: (لعلَّ اللهَ قد اطَّلعَ على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غُفِرَ لكم).

الآية ٧٠: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾ – الذين دفعوا المال فِداءً لهم من الأسر –: لا تحزنوا على الفداء الذي أُخِذَ منكم، لأنه ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا﴾ أي إيماناً صادقاً وإسلاماً حقيقياً: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ﴾ من المال، بأن يُيَسِّر لكم من فضله خيرًا كثيرًا ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ذنوبكم، ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لذنوب عباده التائبين، ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم حيثُ قَبِلَ توبتهم وأعانهم على الثَبات عليها.

♦ واعلم أنّ هذه الآية قد نزلتْ في العباس – عم رسول الله صلى الله عليه وسلم –، وذلك لأنه بعد أنْ وقع في الأسْر، أسلَمَ وأظهَر إسلامه، ثم طلب من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يَرُدَّ عليه ما أُخِذَ منه مِن فدية، فرفض الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك، فأنزَلَ اللهُ هذه الآية، وأوْفَى بوعده للعباس رضي الله عنه، ففي صحيح مسلم أنه لَمَّا قَدِمَ على النبي صلى الله عليه وسلم مالٌ من البحرين، قال له العباس: (إني فادَيْتُ نفسي – أي مِن الأسر – وفادَيْتُ عُقَيْلاً)، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: (خُذ)، فبَسَطَ العباس ثوبه وأخذ ما استطاع أن يَحمله، وقال: (هذا خيرٌ مما أُخِذَ مِنِّي، وأنا أرجو أن يَغفر اللهُ لي).

الآية ٧١: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ﴾: يعني وإن يُرِدْ هؤلاء – الذين أَطْلَقْتَ سَراحهم – أن يَخونوك، بأن يُظهروا إسلامهم لك، ثم إذا عادوا إلى ديارهم، عادوا إلى كُفرهم، فلا تهتم بهم ولا تخَف مِن كَيدهم ﴿فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي مِن قبل وقوعهم في الأسر، وذلك بكُفرهم في مكة ومحاربتك ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ المؤمنين، وجعلهم في قبضتهم، فقتلوهم وأسَرُوهم، ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بنيَّات هؤلاء الأسرى، ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يَحكمُ به عليهم، ألاَ فلْيَتقوه سبحانه، ولْيَصدقوا في إسلامهم، فإنّ ذلك خيرٌ لهم.

الآية ٧٢: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ من دار الكُفر إلى دار الإسلام – أو إلى بلدٍ يتمكنون فيه من عبادة ربهم – ﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي مِن أجل أن يُعبَدَ اللهُ وحده ولا يُعبَد معه غيره، ﴿وَالَّذِينَ آوَوْا﴾: يعني وكذلك الأنصار الذين أنزَلوا الرسول والمهاجرين في ديارهم، وأعطوهم مِن أموالهم، ﴿وَنَصَرُوا﴾ دينَ الله تعالى ﴿أُولَئِكَ﴾ - أي المهاجرون والأنصار - ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾: أي بعضهم نُصَراءُ بعض.

♦ فهذا هو الصِنف الأول من المؤمنين – وهم المهاجرون والأنصار – أكْمَلُ المؤمنينَ وأعلاهم درجة، وأما الصِنف الثاني من المؤمنين فهو المذكور في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي بالله ورسوله والدار الآخرة، ولكنهم رَضُوا بالبقاء بين الكافرين ﴿وَلَمْ يُهَاجِرُوا﴾ من دار الكُفر ويَلتحقوا بالمسلمين في "المدينة"، فهؤلاء ﴿مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾: يعني لستم مُكَلَّفين بحمايتهم ونُصرتهم ﴿حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾، ﴿وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ﴾: يعني وإن قوتِلوا وظُلِموا مِن أجل دينهم فطلبوا نُصْرَتكم: ﴿فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾: أي فعليكم نَصْرَهم والقتال معهم، (أمّا إن قوتِلوا بسبب أمْرٍ من الأمور الدُنيوية، فليس عليكم نَصْرهم طالما أنهم لم يهاجروا).

♦ ثم اشترط تعالى شرطاً لِنُصرتهم، وهو: ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ يعني: وإن كان المؤمنون – الذين لم يهاجرو – يقاتلون قوماً بينكم وبينهم مُعاهدة سِلم، ولم يَنقضوا عهدهم معكم، فعليكم أن توفوا بعهدكم ولا تقاتلوهم، ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (هذه الجملة تحمل تحذيراً للمسلمين حتى لا يَحملهم التعاطف مع المسلمين على أن يقاتلوا قوماً بينهم وبينهم عهدٌ وميثاق).

الآية ٧٣: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي بعضهم نُصَراءُ بعض، ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ﴾: يعني وإن لم تكونوا – أيها المؤمنون – نُصراءَ بعض: ﴿تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ﴾ أي صدٌ للمسلمين عن دينهم، ﴿وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ بانتشار الشرك والفساد في الأرض، وتقوية ركائز الكفر.

الآية ٧٤، والآية ٧٥: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ (هذا هو الصِنف الأول من المؤمنين، أعادَ اللهُ ذِكْرَهُ لِيَذكُر له جزاءه)، فقال: ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم بسترها وعدم المؤاخذة عليها، ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وهو نعيم الجنة، في جوار ربهم سبحانه وتعالى.

♦ ثم ذكَرَ تعالى الصِنف الثالث من أصناف المؤمنين بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ﴾ أي مِن بعد الهجرة، ﴿وَهَاجَرُوا﴾ إلى المدينة بعد صُلْح الحُدَيْبِيَة، ﴿وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ﴾ في سبيل الله، ﴿فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ أيها المؤمنون، لهم ما لكم وعليهم ما عليكم.

♦ فهذه النُصرة الإيمانية كانَ لها شأنٌ عظيم، حتى إنّ النبي صلى الله عليه وسلم آخَى بين المهاجرين والأنصار أُخُوَّةً خاصة – غير الأُخُوّة الإيمانية العامَّة – حتى كانوا يتوارثون بها، فنسَخَ اللّهُ ذلك بقوله: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ﴾ أي وأصحابُ القرابة ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ﴾ في التوارث مِن عامَّة المسلمين، وذلك ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي في حُكمِ اللهِ تعالى وشَرْعِه، ﴿إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ إذ يَعلمُ سبحانه ما يُصلِحُ عبادهُ مِن توريث بعضهم مِن بعضٍ في القرابة والنسب، دونَ التوارث بالحِلف والنُصرة، وغير ذلك مما كان في أول الإسلام.

****

الفهرس

سلسلة كيف نفهم القرآن؟ (*) ١
(تفسير سورة الأنفال بأسلوب بسيط جداً) ٢
١. الربع الأول من سورة الأنفال ٢
٢. الربع الثاني من سورة الأنفال ٧
٣. الربع الثالث من سورة الأنفال ١٠
٤. الربع الأخير من سورة الأنفال ١٦